الموت الثاني لارنست بيفن

الحياة - ١٤/١٢/٨٨

غسان سلامة

■ إن قامت دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، يكون ارنست بيفن قد مات مرتين. كان بيفن وزيرا للخارجية في حكومة العمال التي تسلمت الحكم في بريطانيا غداة الحرب العالمية الثانية. وما لبث ان وجد قضية فلسطين تقع على كتفيه، غير المهيأتين تماما لهذا الحمل الثقيل. فكان ان قرر ان فلسطين يجب ان تبقى موحدة بعد انتهاء الانتداب البريطاني عليها، وان تقوم عليها دولة واحدة تضم العرب واليهود معا.

كان بيفن يرى في التقسيم، اي في تقطيع فلسطين الى دولتين متجاورتين واحدة عربية والاخرى يهودية، اسوا انواع الحلول، لانه يعني في النهاية ان العصبيات والديانات والقوميات غير قادرة على التعايش ضمن اطار سياسي واحد. وكان هذا الامر يناقض معتقداته العميقة، الانسانية والاشتراكية. اما مسالة اليهود، فكان يرى فيها ازمة في الاساس اوروبية، بسبب هتلر والنازية، وبالتالي فحلها يجب ان يكون اوروبيا، وليس على حساب عرب فلسطين.

كان هذا ألهوى يلائم ايضا نظرة بيفن الى بريطانيا لم يكن الوزير العمالي ليقبل بسهولة بانزال الستارة على مركز بريطانيا المميز في الشرق. كان بيفن يحلم باستمرار النفوذ الامبراطوري، وكان يعتقد ان هذا النفوذ يمر بالضرورة بعلاقات حسنة مع العرب في مختلف بلدانهم، ولا سيما مع غرب فلسطين. لذا اختلف اليعمالي بيفن عن المحافظ تشرشل. اختلاف المتعاطف مع العرب مع المنحاز لاسرائيل. كان تشرشل صهيونيا، يعتقد بضرورة قيام كيان يهودي على جزء من فلسطين، وغداة الحرب كان تشرشل من مؤيدي هذا الكيان، اي من محبذي التقسيم الى دولتين. بيفن لم يكن من هذا الراي، كان يعتبر وعد بلفور احدى غلطات بريطانيا الكبرى، وينظر الى فلسطين كدولة عربية. يهددها استعمار استيطاني غربي كالذي كان حاصلا في الجزائر وكينيا.

ودفع بيفن غاليا ثمن مواقفه الحازمة. كان اللوبي اليهودي في بريطانيا يحاربه بقوة، وكان تشرشل يهزأ منه في البرلمان وعندما ذهب الى نيويورك لحضور اجتماع الامم المتحدة قامت التظاهرات اليهودية ضده. ورفض عمال الميناء انزال امتعته من الباخرة ولم يكن الوزير العمالي يجد داخل حزبه التاييد الكافي لهذا الموقف المبدئي، حتى ان رئيس الحكومة، كليمنت أتلي، كان في وارد آخر.

لذا لم يستطع ارنست بيفن في النهاية تغليب رايه. ذلك أن موقفه من فلسطين كان مرتبطا بموقفه من استمرار النفوذ الامبراطوري البريطاني. ولكن بريطانيا وجدت نفسها، غداة الحرب العالمية الثانية، بحاجة ماسة للدعم الاميركي في غير مكان، بحيث تستطيع الانسحاب من مناطق العالم الساخنة والمكلفة جدا لميزانيتها المنهكة. فكان ان انسحبت من شرق المتوسط بعدما تعهد الرئيس ترومان بالحلول مكانها في اليونان وتركيا وايران ثم جاء الانسحاب من شبه القارة الهندية ليشكل هزيمة نكراء لمعتقدات بيفن وامثاله. اذ حصل في الهند تقسيم حاد، وانتقال سكاني واسع وفقا لمعايير دينية، بحيث قامت باكستان المسلمة، بعد انفصالها عن الهند الأم.

هذا الاعتماد المتزايد على الولايات المتحدة من جهة، وبزوغ العصبيات الدينية من جهة اخرى حملا بيفن على الرضوخ للأمر الواقع في فلسطين. فما كان منه الا ان انتقل الى موقع جديد، موقع تحديد المجال الجغرافي للكيان الصهيوني بصورة حصرية قدر الامكان. لم يكن بيفن لينكر، ولو مرة بأن تقوم دولة فلسطينية الى جانب الدولة اليهودية. لذا نجده من بين الذين راحوا يشجعون الامير عبدالله بن الحسين على الاستيلاء على اكبر مساحة ممكنة من فلسطين لئلا تقع لقمة سائغة في ايدي المستعمرين الصهاينة. وكان بيفن، من جانب اخر، يعترف بميزان القوى الدولي الجديد وهو يردد: «طالما ان اميركا دولة كبرى، فمن يمس باليهود سيجد أميركا على دربه».

كان ارنست بيفن ليفرح لو بقي حيا وراى قيام الحركة الوطنية الفلسطينية بدءا من منتصف الستينات تطالب بقيام دولة واحدة على كامل اراضي فلسطين، دولة علمانية تكون مثالا للعيش المشترك بين اليهود والعرب. فهذا كان بالاساس هدفه. ولكن الامور تسير، منذ حين في اتجاه معاكس. فالاردن تخلى عن علاقته بالضفة الغربية وقطاع غزة، ومنظمة التحرير تسير قدما نحو الاعتراف بدولة اسرائيل، على ان تقبل اسرائيل بقيام دولة فلسطينية على بعض من الأرض الفلسطينية. وهناك في اسرائيل من قبل بالذات بهذا، اي بالعودة الى حدود التقسيم، اي لمبدا القرار ١٨١ إن لم يكن للحدود التي يضعها للكيانين. لقد ابتعدنا عن «حكومة عموم فلسطين»، كثيرا، بسبب ميزان قوى منقلب ضدنا، وبسبب أميركا التي وجدها الفلسطينيون عقبة دائمة على دربهم نحو الوطن، وبسبب ما طرا على الموقف العربي العام من ترهل نفطي عقيم. وبذا عدنا نقترب من بداية النزاع ومن «حل الدولتين» الذي عرض علينا ...انذاك ورفضناه.

هل مات بيفن مرة اخرى؟ يبدو ذلك من كل ما نراه يجري في ستوكهولم وجنيف وقبلها في الجزائر. لكن الناظر الى البعيد يصعب عليه ان يقبل بان ثلاث دول ستتجاور بين الصحراء والبحر، الاردن، فلسطين، فاسرائيل. وسيصعب عليه تصور استمرار هذه الدول «المستقلة» والميل العالمي نحو التجمع الاقليمي. لذا فما علينا ان نفاجا اذ راينا معلقا سوفياتيا بارزا يكتب مؤخرا في «الحياة» تفضيله المستمر لدولة فلسطينية واحدة، يعيش عليها المسلمون واليهود والمسيحيون في اطار سياسي موحد، علماني وديمقراطي. ذلك انه يصعب على السوفيات، او على الاقل على بعضهم، القبول بان منطق التجزئة والتفرقة وراء جدران دينية هو القانون التاريخي الأوحد. وربما كان ذلك الكاتب السوفياتي، وارنست بيفن من قبله، محقين. ولكن تصور فلسطين موحدة، علمانية وديمقراطية، يمر على ما يبدو، بشرط مسبق هو ضرورة تكريس تقسيمها ولو الى حين.

في هذا الافق التاريخي، يبدو قيام دولة عربية على بعض من فلسطين ذا معنى محدد: العودة الى العناصر المحلية على حساب الاطراف غير المحلية، بما فيها العربية من جهة، واعادة تكريس الثنائية القومية في فلسطين بعد سنوات اربعين من نفي الواحدة منها لوجود الأخرى. وان كانت استراتيجية الفلسطينيين اصبحت تقوم اليوم على ان تقسيم فلسطين اصبح شرطا لاعادة توحيدها في المقبل من الزمن، فإنهم يكونون في طور اعادة احياء قناعات ارنست بيفن ولو انهم، في الظاهر من الامور، يطمرونها مرة اخرى.